

الشيخ المفيد

فريد عصره

بقلم: د. باسمة شامي بزي

لعلَّ عصر بني بويه الذين حكموا في بغداد زمن العباسيين، يُعدُّ واحداً من أزهى العصور التي شهدت إنطلاقة الفكر الشيعي انطلاقة مظفرة حفلت بالعديد من المصنّفات التي توفّر على وضعها قلةً من كبار علماء الشيعة الإمامية الذين يأتي في طليعتهم واحدٌ زمانه وفريد عصره محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد. فمن هو هذا الشيخ الذي وضع العشرات من المصنّفات الفقهية والأصولية والتاريخية والكلامية والفلسفية...؟

ولادته، نشأته، دراسته:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، العكبري، نسبةً إلى عكبرة الواقعة بين بغداد والموصل وفيها كانت ولادته سنة ٢٣٦هـ وقيل ٢٣٨هـ، الحارثي، البغدادي الملقب بالشيخ المفيد.

نشأ وترعرع في كنف والده الذي كان معلماً بواسط. من هنا كانت كنيته بابن المعلم، وما أن تجاوز سني الطفولة، وأتقن مبادئ القراءة والكتابة حتى ارتحل مع والده إلى بغداد، فأخذ يتلقى العلم على شيوخ ذلك العصر، وكبار علمائه الذين أربوا على الخمسين.

شخصيته:

تمتّع الشيخ المفيد بشخصية فريدة، إذ تحلّى بأخلاق عالية وورع وتقوى، وعلم قلّ نظيره، ما دفع حتى المخالفين إلى مدحه والثناء عليه وخير مثال على ذلك ما جاء في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، الذي قال: «كان كثير المعروف والصدقة، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم. كان يلبس الخشن من الثياب، وكان بارعاً في العلم وتعليمه...».

سبب تسميته بالمفيد:

لمّا كان الشيخ المفيد يدرس على أستاذه أبي ياسر غلام أبي الحبيش، طلب منه هذا الأخير أن يحضر درس علي بن عيسى الرّماني المعتزلي في الكلام، فحضره، وبهذا الصدّد يقول الشيخ المفيد: دخلتُ عليه والمجلس غاصّ بأهله، وقعدتُ حيث انتهى بي المجلس، فلمّا خفّ الناس اقتربت منه، فدخل عليه داخل من البصرة، وطال الحديث بينهما، فقال الرجل لعلي بن عيسى: ما تقول في يوم الغدير والغار. فقال الرّماني: أما خبر الغار فدراية وأما خبر الغدير فرواية، والدراية لا توجب ما توجه الرواية. فانصرف البصري ولم يجد جواباً ما يرد به عليه. فقلت (أي الشيخ المفيد): أيها الشيخ مسألة. فقال: هاتِ مسألتك.

قلت: ما تقول فيمن قاتل الإمام العادل؟ فقال الرّماني: إنّه كافر. ثم استدرك فقال: إنّه فاسق. فقلت: ما تقول في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

قال الرّماني: إمام. فقلت ما تقول في يوم الجمل وطلحة والزبير. فقال الرّماني: تابا. فقلت: أما خبر الجمل فدراية، وأما خبر التوبة فرواية. فقال الشيخ: كنت حاضراً وقد سألتني البصري؟ فقلت: نعم. رواية برواية، ودراية بدراية. فقال: بمن تُعرف؟ فقلت: أعرف بابن المعلم وأقرأ على الشيخ أبي عبد الله الجعل. فقال: موضعك، ودخل منزله وخرج معه ورقة قد كتبها وألصقها. فقال لي: أوصل هذه الرقعة إلى أبي عبد الله. فجئت بها إليه، فقرأها، ولم يزل يضحك بينه وبين نفسه. ثم قال: ماذا جرى لك في مجلسه، فقد أوصاني بك، ولقبك المفيد، فذكرت له المجلس بقصته.

من أساتذته:

- الشيخ أبو عبد الله الحسين بن علي بن إبراهيم البصري.
- محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق.
- أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي.
- الشيخ علي بن عيسى الرمّاني.
- أبو حفص محمد بن عمر بن علي الصيرفي المعروف بابن الزيات.
- إسماعيل بن محمد الأنباري.
- محمد بن سهل الديباجي.
- محمد بن المظفر الوراق.
- علي بن خالد المراغي القلانسي.
- أبو القاسم علي بن محمد الرفاء.
- أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني.

من تلامذته:

- الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، الملقّب بشيخ الطائفة.
- أبو الفتح الكراچي.
- أبو الفرج المظفري بن علي بن الحسين الحمداني.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الله العبدي البحراني.
- أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي.
- أبو يعلى محمد بن الحسن بن حمزة الجعفري.

— الشريف الرضي، جامع نهج البلاغة وأخوه المرتضى، وبخصوص هذين التلميذين الأخيرين، وهما من صافي النجابة والسيادة والعلم، نرى لزماً علينا أن نذكر تلك الرواية التي تقول إن الشيخ المفيد رأى في منامه أنّ السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام دخلت عليه وهو في مسجده بالكرك، ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام، فسلمتهما إليه وقالت علمهما الفقه، فانتبه الشيخ وتعبّ من ذلك. فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا، دخلت إليه فاطمة بنت الناصر، وبين يديها ابناها علي المرتضى ومحمد الرضي وهما صغيران، فقام إليها وسلم عليها، فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداي قد أحضرتكما إليك لتعلمهما الفقه فبكى الشيخ وقصّ عليها المنام وتولّى تعليمهما.

مصنفاته:

عُرف الشيخ المفيد بـ«صاحب التصانيف الكثيرة» إذ فاقت مؤلفاته المائتي مصنف، في علوم القرآن والفقه والأصول والحديث والفلسفة والتاريخ والرجال والأدب. ومن تلك المؤلفات:

- المقنعة، وتعتبر أكبر مصنفات الشيخ الفقهية، وهي في قسمين: الأصول أي العقائد والفروع.
- الأركان في دعائم الدين.
- الإفصاح في الإمامة، وينقسم إلى قسمين: الأول في إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام والثاني في إمامة غيره.
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، في ترجمة حياة الأئمة الأطهار عليهم السلام، وترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة منها: الفارسية والأردنية والإنجليزية.
- العيون والمحاسن: ويحتوي على مناظرات الشيخ المفيد مع المخالفين.
- الأمالي: وهو عبارة عن مجالس الحديث التي كان الشيخ المفيد يملئها على تلامذته.
- المزار: وهو في قسمين: القسم الأول في فضيلة الكوفة وكربلاء وزيارات أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام، أما القسم الثاني ففي فضيلة زيارة الرسول صلى الله عليه وآله والسيدة فاطمة عليها السلام وسائر الأئمة.

- المسائل الطوسية: وهي مسائل فقهية وجَّهها الشيخ الطوسي إلى أستاذه الشيخ المفيد.
- أقسام المولى في اللسان: وهو عبارة عن دراسة لغوية لأقسام كلمة المولى الواردة في حديث النبي ﷺ: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه».
- أوائل المقالات في المذاهب المختارات: بحثٌ مفصّل في عقائد المذهب الإمامي مع ذكر من يوافقهم من سائر الفرق. وهو كتاب كلامي قيّم.
- تصحيح الاعتقاد: وهو شرح لكتاب الاعتقاد للشيخ الصدوق، وقد ناقشته في بعض الآراء. تُرجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية والفارسية.
- كتاب الجمل: وهو كتاب تاريخي يشرح فيه سير أحداث معركة البصرة.
- تفضيل أمير المؤمنين ﷺ على سائر الصحابة.
- رسالة في عدم سهو النبي ﷺ.
- إيمان أبي طالب.
- التواريخ الشرعية.
- الإعلام فيما اتفقت عليه الإمامية من الأحكام، لما أجمعت العامة على خلافه.

وفاته:

تُوفي الشيخ المفيد في بغداد سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م عن عمر يناهز الخمسة والسبعين عاماً. وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً، حيث صلّى عليه تلميذه الشريف المرتضى في ميدان الأشنان في بغداد، بحضور عدد هائل من المشيِّعين وكان ابن كثير قد ذكر ذلك اليوم حين قال: «وكان يوم وفاته مشهوداً شيعه فيه ثمانون ألفاً من الشيعة».

دُفن الشيخ المفيد بادئ الأمر في داره لسنين عديدة، ثم نُقل جثمانه الشريف فيما بعد إلى الكاظمية، ليُعاد دفنه بالقرب من مرقديّ الإماميّين الجواديّين وإلى جانب شيخه العلامة جعفر بن محمد بن قولويه. وقبره اليوم واضح يُزار. وقد رثاه العديد من الشعراء، منهم الشيخ عبد المحسن الصوري حيث يقول:

يا له طارقاً من الحدثن
ألحق ابن النعمان بالنعمان
برئت ذمة المنون من الإيمان
لما اعتدت على الإيمان
ورأى الناس حيث حلوا من
الأرض وحيث انتحوا من الأوطان
يطلبون المفيد بعدك والأسماء
تمضي فكيف تبقى المعاني
صيحةٌ أصبحت تبليغ أهل الـ
شام صوت العويل من بغداد
ومنهم أيضاً الشاعر مهيار الديلمي في قصيدة جاء فيها:
ما بعد يومك سلوة لمعلل
مني ولا ظفرت بسمع معدل
سوى المصاب بك القلوب على الجوى
فيد الجليل على حشا المتململ
وتشابه الباكون فيك فلم بين
دمع المحق لنا من المتعمل
كنا نغيّر بالحلوم إذا هفت
جزعاً ونهزاً بالعيون الهمل
فالיום صار العذر للفاني أسى

قيل فيه :

قال عنه تلميذه الشيخ الطوسي في كتابه معجم رجال الحديث: «محمد بن محمد بن النعمان المفيد المفيد، يكنى أبا عبد الله، المعروف بابن المعلم، من جملة متكلمي الإمامية. انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته، وكان مقدماً في العلم وصناعة الكلام وكان فقيهاً متقدماً، فيه حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، وله قريب من مائتي مصنف كبار وصغار». وقال ابن النديم: «ابن المعلم هو أبو عبد الله في عصرنا انتهت رئاسة متكلمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام، على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، حاضر الخاطر، شاهدته فرأيتته بارعاً...». أما الشيخ عباس القمي فقال فيه: «واتفق الجميع على علمه وفضله، وفقهه وعدالته وثقته وجلالته...».

المصادر:

- الطهراني، آقا بزرك: طبقات أعلام الشيعة، قم، مكتبة إسماعيليان.
- الطوسي، محمد بن الحسن: الفهرست، تحقيق: جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقاهاة.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب، إسحاق: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد طهران.
- الطوسي، محمد بن الحسن: معجم رجال الحديث.
- القمي، عباس: الكنى والألقاب، منشورات مكتبة الصدر، طهران.
- الأمين، محسن: أعيان الشيعة. دار التعارف للمطبوعات.